

ملخص:

يتناول هذا البحث حياة العرب الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، بالاعتماد على القرآن والشعر وعلى مصادر من المصادر الإسلامية المبكرة هما كتاب الأصنام للكلبي وكتاب المنمق في أخبار قريش لابن حبيب البغدادي. وهو بحث يسعى إلى تجاوز نزعة التعميم والاحتقار التي تلف حياة العرب قبل الإسلام لا سيما ما تعلق بالجوانب الدينية منها، ويسعى كذلك إلى تبيان الصلة بين تدين العرب وأنماط اجتماعهم، وإلى الوقوف على الروابط بين الإسلام وعقائد العرب وطقوسهم السابقة.

مدخل:

يعاني تاريخ العرب قبل الإسلام من التعميم والتجاهل الذي قد يبلغ حد الاحتقار لدى فئات كثيرة. ويزداد هذا الأمر رسوحاً في باب الاعتقادات الدينية بما أنّ الإسلام قد جبّ ما قبله في نظر عدد من الباحثين. ونعتقد أنّ وسم هذا العصر بالجاهلية بما يحمله اللّفظ من مطاعن دليل على ما نذهب إليه.

إنّ محاولة التعرّف على الحياة الدينية العربية قبل الإسلام هي باب إلى معرفة العصر برمتّه من جهة، وباب كذلك إلى فهم الحديث الإسلامي وإلى فهم القرآن باعتباره خطاباً محاوراً لمتقبليه الأوائل الجاهليين.

نعني بالحياة الدينية في هذا السياق جملة البنى الذهنية والطقوسية والسلوكية المتعلقة بالعقيدة، بل بالظاهرة الدينية: عبادة الأصنام، والحجّ، والشرك والتّوحيد، والصلة بالغيب وأعوانه من جنٍّ ورئيّ وملكٍ وشيطان، والجماعات الدينية كالحنفاء والنساك والنصارى...

وقد تخّيرنا لدرستنا مصدرينا من المصادر الإسلامية المبكرة:

- الكلبي (هشام بن محمد بن السائب، ت 204 هـ): كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، المكتبة العربية (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب. القاهرة 1924).

والكلبي من رجالات الكوفة وعلمائها، عاش في القرن 2 هـ، وتوفي سنة 204 هـ. ولا يعلم تاريخ ولادته على التحديد فقد أغفل كلّ من أرّخ له ذكر تاريخ ولادته.

أخذ من مشايخ عصره من مثل ابن سعد (ت 230 هـ) وابن حبيب (ت 245 هـ) كما نقل عنه جملة من الألحقيين منهم الجاحظ (ت 255 هـ) والطبراني (ت 304 هـ) ويبدو من خلال قائمة مصنفاته التي أوردها ابن النديم في الفهرست أنّ الرجل كان نسبة راوية للشعر عالماً به إخبارياً جغرافياً. وقد اشتهر الكلبي بين أهل عصره بالتشييع وجرّحه من أجل ذلك أصحاب مدرسة الحديث.

أما عصره فهو عصر التدوين بامتياز: تدوين المعرفات المتوارثة على اختلافها وترجمة علوم الأوائل، وهو كذلك عصر بداية تكون المدارس الفقهية والكلامية، وبداية استقلال العلوم بعضها عن بعض (التاريخ والأنساب والسير والفقه والحديث...).

كتاب الأصنام: لا يستهلّ الكلبي كتابه بخطبة تبين عن دواعي تأليفه ولا عن منهجه فيه كما جرت العادة، وإنّما هو مجموعة من الأخبار تخضع لما يخضع له جنس الخبر من سند ومتن أحياناً، ويهمّل السند

أحياناً أخرى [عن أبي صالح عن ابن عباس قال: حدثني رجل يكنى أبا بشر قال...، ص 48]. أما المتن فهو نص الخبر كما رواه الكلبي، وينفتح الخبر عنده على فنون أخرى أهمها الشعر فالقرآن فالحديث. ويلمس الناظر في كتاب الأصنام أن الكتاب لا يخضع لنظام في التأليف كيما قلبه إذ لا يمكن تبوييه حسب الاعتقادات ولا حسب القبائل. ولعل غياب التبويب من آثار المشافهة.

أما تحقيق الكتاب فجيد إذ اعنى المحقق أحمد زكي بضبط الألفاظ وشرحها وتعيين الزيادة وضبط الفهارس والتعريف برواية الكتاب، بل إنه استدرك على الكلبي ما أغفل من أصنام العرب فأورد قائمتها في آخر الكتاب.

- ابن حبيب (محمد البغدادي، ت 245 هـ): المنمق في أخبار قريش، صحّحه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتاب، بيروت، ط 1، 1985.

وابن حبيب مولى نسب إلى أمه حبيب مولاة بنى هاشم، وكان مؤدّباً لولد العباسين، وهو تلميذ الكلبي وأبي عبيدة (ت 209 هـ) وقطرب (ت 206 هـ) إلا أنه كان كثيراً ما ينفل عن الكلبي. وهو عالم باللغة والشعر والأنساب والأخبار والقبائل. تنسب إليه كتب الرجال ما يربو على الأربعين كتاباً لعل أهمّها كتاب المحرّر وكتاب المنمق في أخبار قريش.

كتاب المنمق: هو مجموعة أخبار تعلقت بقريش قبل الإسلام غالباً، ليست مرتبة حسب السنين لكنّها "مرتبة" حسب الموضوعات أحياناً، المنافرات 90 - 110 / الروى 235 - 239 / من دخل من قريش في الإسلام بغير حلف 249 - 273. وتكثر الشواهد الشعرية وتحقيق الأنساب. وفي الكتاب مواد لا يشتمل عليها أي مصدر آخر مثل "من حُدَّ في الخَمْر". ويهمل السند في الأغلب الأعمّ من الأخبار، وإن حضر فهو الكلبي عادةً، حتى إنه ليتمكننا القول إنّا حين جمعنا بين "الأصنام" و"المنمق" فإنّما نحن نجمع في الحقيقة روایة واحدة عن أحوال العرب قبل الإسلام: تديّنهم.

سننظر في هذين المصادرين والمراجع المكملة لهما مستعينين بالإشكاليات التالية:

1- ما هي أنماط تدين العرب قبل الإسلام سلوكاً تعبيدياً واعتقاداً ذهنياً، وما هي الطقوس التي كانوا يؤدونها والخطابات التي كانوا يتداولونها؟ وما دلالة كل ذلك في سياق الظاهرة الدينية عموماً؟ وهل يمكن تلمس خيط ناظم لها رابط بينها؟

2- ما علاقة حياة العرب الدينية قبل الإسلام بأنماط اجتماعهم ونظمهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية (الحياة قبلية، الأحلاف، التجارة...).

3- ما هو وجه الصلة بين تدين العرب قبل الإسلام والحدث الإسلامي؟

4- كيف تمثل المؤرخ المسلم حياة العرب الدينية الجاهلية وهو يحدث عنها؟

بلاد العرب وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية قبل الإسلام

شبه الجزيرة العربية [أعرابيا في المصادر القديمة] هي موطن العرب قديماً، وهي تقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا، يحدها البحر الأحمر شرقاً والمحيط الهندي جنوباً وبحر الخليج غرباً (لذلك تسمى شبه جزيرة) وببلاد الشام شمالاً. وهي بلاد فسيحة، أرضها حرات (حجارة سوداء نخرة) ورمالها وعسا. وتقسم قديماً إلى خمسة أقسام هي تهامة والجaz ونجد والعروض واليمين (تضمّ اليوم العربية السعودية وعمان وقطر والإمارات والبحرين واليمن). لقد جعل هذا الموقع الجغرافي بلاد العرب حلقة اتصال بين مصر وبابل وهما موقعان لأهم الحضارات القديمة، وكذلك هي حلقة وصل بين سوريا والمحيط الهندي مما جعل للعرب اطلاعاً على الديانتين اليهودية (المصرية) وال المسيحية (السورية)، أمّا البابليون والأشوريون ثمّ الفرس (العراق) فقد كانت لهم أيام مع العرب فأقاموا على تخومهم ممالك عربية صغيرة تحمي ظهورهم من غارات البدو والعرب (ملكة الحيرة).

إنّ أهمّ المراكز الحضريّة العربيّة كانت إما في اليمن (صنعاء، نجران، عدن) أو على أطراف شبه الجزيرة العربيّة (تنّمر، النبط، الحيرة) أما داخل الجزيرة فهي مراكز ناشئة كمكة ويثرب والطائف واليامنة (الجaz خاصة) وتصوّر المصادر القديمة جدّاً (قبل الميلاد) سواء منها التاریخیة كالنّصوص الآشوريّة أو الدينية كالتوراة بلاد العرب على أنها بلاد العطش وشظف العيش (سفر أشعیاء 12: 13-14).

تغلب على العرب البداوة، لقد عاش أغلبهم رحّلاً يتبعون الماء والكلأ، وانبني نظامهم الاجتماعي على القبليّة فكانت القبائل تتنازع أحياناً، وتتحالف أحياناً أخرى حسب ميزان المصالح. وينقسم العرب في عرف النسبة إلى عرب الشّمال (عرب مستعربة، العدنانيون، النّزاريون) وعرب الجنوب (عرب عربية، اليمانيون، القحطانيون)، وهذا التقسيم هو في الحقيقة تقسيم حضاري: بدو في الشّمال وحضر في الجنوب. لكن ذلك لا يعني الانفصال بينهما ولا الثبات فكثيراً ما كان العرب يطعنون (الأوس والذرّاج من عرب الجنوب استقرّوا في الشّمال: يثرب).

ويقسم النّسبة عرب قحطان إلى كهلان وحمير: ومن فروع كهلان طيء (في الشمال) وعاملة وجذام (بادية الشام) وهدان ومذحج (اليمن) والأزد (عمان) ومنهم الغساسنة وخزاعة. ومن فروع حمير: قضاعة (شمال الحجاز) وتتوخ وكلب (بادية الشام) وجهينة وعدرة (الحجاز).

أما عرب عدنان فينقسمون إلى ربيعة ومضر، ومن فروع ربيعة أسد ووائل (بكر وثعلب) (بالحجاز)، ومن فروع مضر: قيس عيلان ومنها هوازن وسليم وغطfan وعبس وذبيان (نجد)، ومن فروع مضر أيضًا تميم (بادية البصرة) وهذيل (قرب مكة) وكناة التي منها قريش (سكنت مكة وجنوبها).

ويلاحظ النّاظر في النّظام القبليّ العربيّ أنَّ ثمَّة وحدات تتجاوز القبليّة (الجَدُّ، الأصل) ووحدات أصغر منها (البطن، الفخذ، العشيرة، البيت...). وهي ظاهرة لاحقة بكلّ نظام اجتماعي يقوم على وحدة الدم، إلَّا أنَّ الحلف والولاء والجوار والمصاهرة كانت آليّات تتدخل في تشكيل القوى الاجتماعية.

وقد جعل هذا النّظام الاجتماعي الفرد ينحصر في الجماعة حتَّى يكاد لا يشعر بوجوده الشخصيّ (هيمنة ضمير الجماعة في معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً)، أمّا إذا ما خرج عن شرعة القبيلة فإنَّها تخلعه في الأغلب فيوالي قبيلة أخرى أو يهيم في الصحراء صعلوگاً. وللقبيلة رئيس /شيخ له المربع أو الخمس من الغائم، وهو يدير شؤون قبيلته يعارضه في ذلك منتدى القوم (دار الندوة) ويتكوّن عادة من حكمائها وأثريائها. وتشارك المرأة في شؤون الحياة جميعها إلَّا أنَّ قيام الحياة على الغزو/الحرب جعل مكانتها دون مكانة الرجل.

أما الحياة الاقتصادية فتقوم على أسيّن: الرعي والتّجارة، إذ يعيش قسم كبير من البدو خاصّة على ما تنتجه الشاء والإبل، وقد يقايسون نتاجها بما يحتاجونه. وهم لذلك ظاعنون أبداً، أمّا القسم الثاني – وهو حضري خصوصاً- فقد برع في التجارة. ونظرًا إلى أنَّ طريق البحر لم تكن آمنة فقد شقَّ الجزيرة العربية طريقان تجاريَّان نشطان يربط أحدهما بين حضرموت والبحرين، ويربط الثاني بين اليمن والشام ويمرُّ من مكة التي تقع في منتصف المسافة تقريبًا (نقل غلات اليمن وطيب الهند وحريرها إلى الشام ومصر، ونقل حبوب الشام ومصر وصنائعهما إلى اليمن). وقد ساهم العرب في هذه التجارة بطرقين: فتاجروا لأنفسهم، جاء في سيرة ابن هاشم: "ثم إنَّ رسول الله (ص) سمع بأبي سفيان بن حرب مقلباً من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثة رجالٍ من قريش أو أربعون"¹ وجاء في الأغاني: "كانت أرض الحبشة لقريش متجرًا ووجهاً"²، أو حموا القواقل التجارية وكانوا أدلاء لها مقابل جعلٍ.

¹- ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 180

²- الأصفهاني: الأغاني، ج 8، ص 52

وقد استغلت قريش الصراع بين الفرس والروم لتحويل مكة إلى قاعدة تجارية آمنة للروم فعقدت الأحلاف مع القبائل^{*} وسطع نجمها في جزيرة العرب. ولا شك أن هذه المعاملات التجارية كانت تُطلُّ العرب على آداب الأمم المجاورة ودياناتهم.

ثقافياً، يتكلّم العرب لغة واحدة هي العربية لكن اللهجات تختلف على مستوى المعجم وعلى مستوى الاشتغال والتصريف، لكن لغة الشعر والعقود والأحلاف كانت موحدة هي العربية الفصحى (لغة قريش)، (نذهب إلى رد القول بوجود لغتين حميرية أقرب إلى الحبشية والأكديّة، ومصرية أقرب إلى العربية والنبطية لأن الحفريات الحديثة تثبت عكس ذلك [مثلاً ذو سموى، هرّام، مكرّب، رحمن] في الحميرية تثبت التشابه بينها وبين المصرية]).

وكان العرب يعرفون الكتابة ثلاثة قرون على الأقل قبل الإسلام، وقد أحصى أحمد أمين سبعة عشر كاتباً قريشياً على عهد بداية الدعوة المحمدية³، وكان بعضهم يتقن العبرانية كورقة بن نوفل أو الفارسية كعدي بن زيد العبادي.

أما إنتاجهم الثقافي السادس فهو الشعر، قال أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين "الشعر" ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستبط آدابها ومستودع علومها⁴. إضافة إلى الخطابة والقصص والأمثال وسرد أيات العرب وأنسابهم كما كانت لهم معرفة بسيطة ببعض العلوم كالطب والفلك...

التوحيد والشرك:

١- الشرك:

ذهب المؤرخون إلى إلباس الشرك قبل الإسلام كل مظاهر الشرك المعروفة في العالم وأصنافه، فنسبوا إليهم الطوسمية وعبادة الأسلاف والأرواح، وقسموهم إلى صابئة وثنوية وعباد الملائكة والجن والنار

*- فكتور سحاب: إيلاف قريش، المركز الثقافي العربي بيروت، ط 1، 1992

³- أحمد أمين: "فجر الإسلام"، ص ص 140-142

⁴- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص 104 ← أهمية الشعر في معرفة ديانات العرب قبل الإسلام فالشعر الجاهلي ليس مدحًا وفخرًا وهجاءً وغزلًا فحسب، بل فيه عقائد العرب وطقوسهم وقد قصر بعض الشعراء شعرهم على الدين.

والشّمس والكواكب...⁵، إلّا أنّ الثابت أنّ عبادة الأصنام كانت هي العبادة الرّائجة في الجاهليّة، وليس عبادة الكواكب أو الملائكة أو الجنّ مثلاً سوى لاحق من لواحق عبادة الأصنام مثلاً سنتين ذلك لاحقاً.

وتعدّ عبادة الأصنام أبلغ مظهر للشرك الجاهليّ بمعنى الاعتقاد بالاشتراك في الربوبية بين الصنّم والإله، دون أن يبلغ الصنّم مبلغ الندية للإله.

ذهب اللغويون إلى التمييز بين الصنّم والوثن فقالوا: "الصنّم ما كان له جسم أو صورة وما لم يكن كذلك فهو وثن" وقالوا أيضاً "ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن".⁶ إلّا أنّنا نعتقد أنّ هذا التمييز بين الأصنام والأوثان متاخر، لأنّنا نرى القرآن قد استعمل "صنّم" و"وثن" استعمال الترادف، جاء في الأعراف 138/7 "جَاؤْنَا بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" وجاء في العنكبوت 17/29 "إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا".

وقد يلحق بالأصنام والأوثان لفظ ثالث هو الأنصاب (مفرده: نصب) إلّا أنّ علماء اللغة قد مالوا إلى اعتبار الأنصاب الحجارة التي كانت تستعمل مذابح للأصنام.⁷

إنّ وصف الرواية للأصنام يجعلنا نميل إلى اعتبار الصنّم أوسع من التمثال وإن اشتتمل عليه، يقول الكلبي متحدثاً عن العزّى "فبعث النبيّ خالد بن الوليد فقطع الشجر وهدم البيت وكسر الوثن"⁸ بيد أنّ التماضيل المصقولة من الحجارة كانت في الأغلب الأعمّ لب الصنّم.

ويلاحظ المتأمل في هذه التماضيل أنّها على صورة الإنسان فـ"هبل من عقيق أحمر على صورة الإنسان" وـ"الفلس أسود كأنّه تمثال إنسان" وـ"وَد" كان تمثالاً رجل كأعظم ما يكون من الرجال، عليه حلّتان مثزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلّده وقد تتكّب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء وفضة فيها نبل".⁹

⁵- انظر مثلاً: الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج 2، ص 197-240.

⁶- ابن منظور: لسان العرب، مادة صنم. والزبيدي: تاج العروس، مادة وثن. والكلبي: الأصنام، ص 53

⁷- ابن سيده: المخصص، مادة نصب.

⁸- الكلبي: كتاب الأصنام، ص 27

⁹- نفسه، ص 28 و 56 و 59

وقد يكون الصنم صخرة عظيمة أو شجرة أو بيتاً عند أهل المدر من العرب أمّا أهل الوبر منهم فاتخذوا حجارة صغيرة في الأغلب لأنّهم كانوا ينفّذونها معهم في حُلُمِهم وترحالهم، وكانت للصنم في هذه الحال خيمته المقدّسة، وهو يشاركهم في الحروب، وقد يقع في الأسر فيستبدلونه بصنم آخر. قال الشاعر:

وسار بنا يغوث إلى مراد فاجزناهم قبل الصباح

وقال آخر:

فتبدلوا اليعبوب بعد إلههم صنمًا فقرّوا يا جديل وأعذبوا

أمّا أشهر الأصنام التي ذكرها المؤرخون فهي اللات وهي صخرة بيضاء مربعة بالطائف لثقيف، تعظمها قريش وجميع العرب¹⁰. ويعتقد المؤرخون أنّ اللات هي الزهرة Vénus، يقول هيرودوتوس في تاريخه "إنّ العرب يعبدون الزهرة السماوية وهم يدعونها أليّنا والإلات" وهو اختصار لإلهات ثم اختصروها إلى اللات. وقد وجد الأنثريون كتابات عديدة ورد فيها ذكر اللات في أماكن مختلفة شمالاً وجنوباً وكانت تضاف إلى المكان فتسمى لات صلخد ولات حبران... وعرفت الزهرة بأسماء أخرى بمقتضى أحوال ظهورها مساءً أو صباحاً، فنجمة المساء هي عتر (العتيرة؟) وهي أيضاً أستار (عشтар)، ونجمة الصبح هي العزّى.

العزّى:

وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد من العراق إلى مكة، و"كانت العزّى شيطانة تأتي ثلاثة سمرات ببطن نخلة"¹¹. وكانت العرب وقريش تخصّها بالإعظام كما عظمها العرب الجنوبيون وملوك الحيرة ونحرروا الأسرى قرباً لها.¹² واعتقد البعض أنّ الرب يشتري بالعزّى لحرّ تهامة ويصطاف باللات لبرد الطائف¹³.

مناة:

وكان منصوباً على ساحل البحر بين المدينة ومكة، وكانت العرب والأوس والخزرج تعظّمه. ويبدو أنها كانت مع اللات والعزّى ثالوثاً مهيمناً على بقية الآلهة عند العرب، ولذلك علاقة في رأينا بقريش وأحلافها

¹⁰- نفسه، ص 16

¹¹- الكلبي: كتاب الأصنام، ص 25

¹²- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 166 كذلك لويس شيخو: النصرانية وأدابها بين عرب الجاهلية، ص 10

¹³- الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ص 126

وطرقها التجارية. وهذه الأصنام الثلاثة هي التي ذكرها القرآن "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعَزَى وَمَنَّاةُ التَّالِثَةِ الْأُخْرَى أَكُلُّهُ الَّذِكْرُ وَلَهُ الْأَنْتَى تِلْكَ إِذَا فِسْمَةً ضِيزَى".¹⁴

ومن أناشيد العرب الدينية قولهم: واللات والعزى. ومنة الثالثة الأخرى. فإنّهن الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترجى.¹⁵

ومن أصنامهم إسف ونائلة تمثلاً رجل وامرأة عاريين بالکعبـة، وهـبـ بالکعبـة أيضـاً، ذو الشـرى صنم دوس به وشـلـ من ماء يهـبـ من جـبـ وهو حـجـر أسـود مـكـعبـ عـلوـه أـربـعـة أـقـدـام وعـرـضـه قـدـمان، ذو الخـلـصـة وهو صـخـرة بيـضـاء عـلـيـها كـهـيـة التـاج بـتـبـالـة بـيـن مـكـة والـيـمـن ويـسـمـي الكـعـبـة الـيـمـانـيـة عـظـمـتـه خـثـعـ وـبـجـيلـة وـهـواـزنـ، والأـقـيـصـرـ فيـ مـشـارـفـ الشـامـ لـقـضـاعـةـ وـلـخـ وـجـذـامـ وـعـاـمـلـةـ وـغـطـفـانـ، وـنـهـمـ لـمـزـيـنـةـ، وـسـعـيرـ لـعـنـزـةـ، وـفـلـسـ لـطـيـءـ وـوـدـ بـدـوـمـةـ الـجـنـدـلـ وـسـوـاعـ وـيـعـوـقـ وـيـغـوـثـ وـنـسـرـ وـعـمـيـانـسـ وـالـيـعـبـوبـ وـرـضـىـ وـسـعـ وـعـائـ وـالـمـحرـقـ وـالـأـسـحـمـ وـالـأـشـهـلـ وـكـثـرـىـ وـذـوـ الـكـفـيـنـ وـذـوـ الرـجـلـ وـالـشـارـقـ وـشـمـسـ وـالـأـسـتـرـ...¹⁶.

يمكن أن نستشفـ من خلال هذه التـسـمـيـاتـ أـنـهـاـ تـدـلـ عـلـىـ معـانـيـ السـعـادـةـ وـالـغـنـىـ (ودـ، نـهـمـ، يـعـبـوبـ، رـضـىـ، سـعـ، نـائـلـةـ، كـثـرـىـ، عـائـ، ...) أوـ أـنـهـاـ سـلـيـلـةـ عـبـادـةـ الـكـوـاكـبـ وـخـاصـةـ الشـمـسـ (شـمـسـ، ذـوـ الشـرىـ، سـعـيـرـ، المـحرـقـ، الشـارـقـ، ...) لكنـ هـذـهـ أـصـنـامـ لاـ تـبـلـغـ بـأـيـ حـالـ مـنـ الـأـحـوـالـ الـلـلـاثـمـائـةـ وـسـتـيـنـ صـنـمـاـ كـمـاـ جـاءـ فـيـ روـاـيـاتـ أـهـلـ السـيـرـةـ وـالـحـدـيـثـ¹⁷، وـبـيـدـوـ أـنـهـاـ أـصـنـامـ قـبـلـيـةـ وـإـنـ بـلـغـ بـعـضـهـاـ مـرـتـبـةـ الصـنـمـ الـقـومـيـ كـالـعـزـىـ.

الـصـنـمـ حـرـمـ أوـ حـمـىـ هوـ فـضـاؤـهـ المـقـدـسـ عـنـ الـعـرـبـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ. لـيـعـضـ شـجـرهـ، وـلـيـزـجـ طـائـرـهـ، وـلـاـ تـخـرـ حـويـتـهـ، وـيـأـمـنـ خـائـفـهـ إـذـاـ اـسـتـجـارـ بـهـ. وـتـقـومـ عـلـىـ خـدـمـةـ الـصـنـمـ مـؤـسـسـةـ السـدـانـةـ (المـفـردـ: سـادـنـ: خـادـمـ الـصـنـمـ أوـ وـكـيلـهـ) يـتـوارـثـهاـ أـبـنـاءـ الدـارـ كـابـراـ عنـ كـابـرـ (كانـ سـدـنـةـ العـزـىـ بنـوـ شـيبـيـانـ بنـ جـابـرـ بنـ مـرـةـ مـنـ بـنـيـ سـلـيـمـ، سـدـنـةـ الـلـاتـ بنـوـ عـتـابـ بنـ مـالـكـ مـنـ ثـقـيفـ) وـالـسـادـنـ هوـ بـابـ الـمـؤـمـنـينـ إـلـىـ الـصـنـمـ وـحـافـظـ طـقـوـسـهـمـ وـقـدـ يـكـونـ كـاهـنـاـ أـحـيـانـاـ كـثـيرـةـ. وـهـوـ إـضـافـةـ إـلـىـ الـقـيـامـ عـلـىـ

¹⁴- النـجـمـ 22-19/53

¹⁵- الكلـبـيـ، نـفـسـهـ، صـ 19

¹⁶- جـعـنـاـ هـذـهـ أـسـمـاءـ مـنـ بـطـونـ الـكـتـبـ الـتـيـ تـنـاـولـتـ الـأـصـنـامـ

¹⁷- انـظـرـ مـثـلـاـ: صـحـيـحـ مـسـلـمـ، حـدـيـثـ رـقـمـ 1408 وـصـحـيـحـ الـبـخـارـيـ، حـدـيـثـ رـقـمـ 4287

الصّنم- يقرِي الضَّيف ويطعم المساكين ويؤلِف قلوب النّاس على الصّنم: يذكر أبو خراش الهمذاني في لاميته أنَّ دبَيَة السَّلْمَى سادن العزَى قد حذاه نعلين¹⁸.

وكان العرب قبل الإسلام يقسمون بالأصنام، قال شاعرهم:

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينَ صَدْقَ بَرَّةِ
بِمَنَاهَ عَنْ مَحْلِ آلِ الْخَرْجِ

ومن أشهر أيمانهم: أقسم برب العزى السعيدة، كما كانوا يسمون أبناءهم بإضافة "عبد" إلى اسم الصنم: عبد العزى، وعبد اللات، وتيم اللات، وزيد اللات، وعبد شمس، وعبد المحرق، وعبد الشارق، وأمة العزى، وعبد مناة... .

ويهدون إليها الهدايا: القلائد والسيوف والحرير والذهب والدرارهم، وقد كان للعزى غبغب أو جب تلقى فيه هذه الهدايا. وكانوا يسكنون في بعض زوايا الحرم ماءً أو حلبياً أو خيزاناً يأكله الطير، وقد سموا بعض أصنامهم لذلك مطعم الطير. وكانوا يذبحون لها العتائر زكاة لماشيتهم إذا بلغت الإبل أو الغنم عدداً معلوماً، ويتم العتر على نصب الصنم وفق طقوس احتفالية (إنارة البعير عند الفجر، الطواف به، التلبية عند نحر السادن له، سكب الدم فوق قنة الصنم¹⁹، غمس اليدين في الدم تبركاً وعهداً...) ويستسقون عند الصنم إذا ما احتبس عنهم الغيث. ويتعهدون أصنامهم بالطيب والبخور الزينة ويتمسحون بها في غدوهم ورواحهم، يستثنون من ذلك الحيض من النساء، بل إنَّ الرجل والمرأة يعتزلان بعضهما عند العبادة²⁰، ولعلَّ أسطورة أسف ونائلة أبلغ دليلاً على ذلك، قال النابغة:

"حِيَاكَ وَدَ فَإِنَا لَا يَحْلُّ لَنَا
لَهُ النِّسَاءُ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَّمَا"

ولعلَّ هذا الملجم يؤكِّد لدينا أنَّ زيارة الصنم تقضي المبيت عنده والمقام أياً ما تطول وتقصر، وهو ما يؤكِّد كذلك أنَّ عبادة الصنم استوجبت عندهم طهارة معلومة أركانها.

أمَّا الطقس الأساسي الذي يجمع عليه الرّواة فهو الطواف بالصّنم، وهو طواف تنشد خلاله الأناشيد الدينية وتطلب الحاجات ويضجّ المؤمنون خلاله تسبيحاً وتهليلًا وتضرّعاً. قال ربيع الفزارى:

¹⁸- الكلبي، نفسه، ص 24

¹⁹- قال شاعرهم: أما ودماء مثيرات تحالها على قنة العزى أو النسر عندما

²⁰- الكلبي، نفسه، ص 10

²¹- نلاحظ أنَّ الطاهر بن عاشور قد استبدل "حياك ود" بـ"حياك ربي" في تحقيقه لبيان النابغة.

"فِإِنَّنِي وَالَّذِي نَعْمَلُ الْأَنَامُ لَهُ حَوْلَ الْأَقِصَرِ تَسْبِيحٌ وَتَهْلِيلٌ"

ويبدو أن صيغ التلبية للأصنام المحفوظة في كتب الأخبار إنما هي نتف دالة من هذه الأناشيد، كتلبية ذي الكفين صنم جرهم "لِيَكَ اللَّهُمَّ لِيَكَ" ، إن جرهما عبادك. الناس طرف وهم تلادك. نحن أولى منهم بولائك".

وهم يستقسمون عند أصنامهم في الطارئ من النوازل أي يستخرون الصنم، قال الكلبي: "وكانت له (ذو الخلصة) ثلاثة أقدح: الأمر والناهي والمتربص"²². وقال الأزرقي: "وكان عنده (هبل) سبعة قداح. كل قدح منها فيه كتاب: قدح فيه العقل... وقدح فيه نعم... وقدح فيه لا... وقدح فيه منكم، وقدح فيه ملصق، وقدح فيه من غيركم، وقدح فيه المياه... وكانوا إذا أرادوا أن يختتوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور، فأعطوه صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا: "إلهنا. أردنا به كذا وكذا فآخرج الحق فيه"²³.

ومن طقوسهم أيضاً الحلق عند الصنم، ويبدو أن الحلق طقس عبور لصبيانهم المولودين حديثاً (قارن بالحقيقة في الإسلام)، وفيهم من يقدم عند الحلق بين يدي الصنم قررة من دقيق، وفيهم من يعتر شاة أو شاتين. وقد يكون الحلق بعد القفول من الحج²⁴.

إن جملة الطقوس المذكورة تكشف عن عقيدة راسخة في الأصنام، فما هو لب هذا الاعتقاد؟

اعتقد العرب قبل الإسلام أن الصنم وسيط يقربهم من الله ويقرب الله المتعالي منهم، لذلك كانت للصنم قدرة على الهدایة والإخبار بالغيب من خلال طقس الاستقسام مثلاً، بل زادوا فقالوا: إنهم يكلّمون منه ويسمعون فيه الصوت²⁵. ولا يعني ذلك اعتقادهم بحياة الصنم، وإنما ظنّ العرب قبل الإسلام أن الأصنام أجسام تحلّ بها الملائكة التي هي بنات الله من الجن فتكلّمهم من خلاله. ولذلك فإن للأصنام -وساكناتها من الملائكة- قدرة على علم الغيب، وعلى التوسيط عند الله للشفاعة²⁶. إن هذه العقيدة قد أبان عنها القرآن وهو يجادل القوم، وإليك الآيات:

²²- الكلبي: كتاب الأصنام، ص 47

²³- الأزرقي: أخبار مكة، ص 68

²⁴- الكلبي: كتاب الأصنام، ص 14

²⁵- الكلبي: كتاب الأصنام، ص 13

²⁶- واللات والعزى / ومنة الثالثة الأخرى / إني للغوث العلى / وإن شفاعتهن لترتجى

1- "وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُمَّ قَاتَىٰ يُؤْفَكُونَ"
(العنكبوت 61/29).

2- "أَلَا إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِاءِ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُفَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ" (الزمر 39).

3- "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءُ شُفَاعَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ يُعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشَرِّكُونَ" (يونس 18/10).

4- "فَاسْتَقْتِلُوكُمُ الْرَّبُّكُ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ حَلَقَنَا الْمَلَائِكَةُ إِنَّا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ
وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ
فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسِبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ" (الصفات 37 / 149-159) كذلك الإسراء 40/17 والزخرف 43/16 والجن 3/72 والنجم 27/53.

5- "أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزَّىٰ وَمَنَّا ثَالِثَةُ الْأُخْرَىٰ الْكُمُ الْذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً ضِيزَىٰ" (النجم 53/19-22).

لقد وهم الباحثون إذن حين قسموا العرب إلى عباد الأصنام وعباد الكواكب وعباد الجن وعباد الله، وإنما هي عبادة واحدة: عبادة الصنم الذي تحل فيه الملائكة التي هي بنات الله من اقترانه بالجن.²⁷

وفضلاً عن القرآن، تشهد المصادر على رواج عبادة الله بينهم، وهذه المصادر هي كتب الأخبار، والشعر الجاهلي، والكتابات العربية الجنوبية قبل الإسلام (المسندي الحميري). ومن مظاهر رواج هذه العبادة التسمية بأمة الله وبعد الرحمن وبعد الله وهم مؤون، وقد ذكر ابن حبيب في المحرر حوالي ثلاثين رجلاً تسمى كلهم بعد الله في الجاهلية²⁸. ومن مظاهرها أيضاً شيوخ صيغة موحدة للتلبية: "لبيك الله لم ليك"، وشيوخ عبارات مثل: باسم الله، أيم الله، والله، الله درك، جزى الله، لحا الله. وقد وردت أسماء الله في المسندي الحميري كالرحمان(لا تجمع في العربية: توحيد) والسميع

²⁷- محمد النوي: الوحي من خلال مصنفات السيرة النبوية قديماً وحديثاً، أطروحة دكتوراه، نسخة مرقونة، الفصل الأول: الوحي قبل البعثة المحمدية

²⁸- ابن حبيب: المحرر، ص 278

والحكيم وإله السماء، كما ورد في النقوش النبطية ما يلي: "بلى والله ذكريات خليص بن شلي".
ونجد اسم الله حاضراً بكثافة في أناشيد تزفين (ترفيص) الأبناء الرضع²⁹.

أَمَّا الشِّعْرُ الْجَاهْلِيُّ فَقَدْ حَفَلَ بِذِكْرِ اللَّهِ أَيْمَا احْتِفالاً:

قال زهير بن أبي سلمى:

لِيَخْفِيْ وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يَعْلَمْ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلَ فَيُقْتَمْ"

"فَلَا تَكْتَمِنَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
يُؤْخَرُ فِيْ وَضْعٍ فِيْ كِتَابٍ فَيُدَخَّرُ

وقال أمية بن أبي الصلت:

"إِلَهُ الْعَالَمِينَ وَكُلُّ أَرْضٍ
وَرَبُّ الرَّاسِيَاتِ مِنَ الْجَبَالِ"

وقال الإيادي:

"وَنَحْنُ إِيَادٌ عَبْدُ إِلَهٍ
وَرَهْطٌ مُنَاجِيهُ فِي السَّلْمِ"

وقال لبيد:

"وَكُلُّ امْرَئٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَعْيُه
إِذَا كَشَفَتْ عَنِ الْإِلَهِ الْمَحَاصِلْ"

وقال أوس بن حجر:

"أَطْعَنَا رَبُّنَا وَعَصَاهُ قَوْمٌ
فَذَقَنَا طَعْمَ طَاعَتْنَا وَذَاقُواْ"

وقال أيضاً:

"وَاللَّاتُ وَالْعَزِّيْ وَمَنْ دَانَ بَيْنَهَا
وَبِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مِنْهُنَّ أَكْبَرُ"

إن هذا البيت الأخير قد أجمل فأبأن، ولخص فمحض، ذلك أنّ فسماً كبيراً من العرب قبل الإسلام كانوا في منزلة بين المنزلتين: الشرك والتوحيد: لا الشرك المحسن أشركوا، ولا التوحيد الخالص وحدوا: ذلك ما يسميه ماكس مولر l'henotheism.

²⁹- ابن حبيب: المنمق، ص 347، قالت هند تزفين ابنتها عبد الله: "وَاللَّهُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ لَأَنْكُحْنَ بَيْتَهُ جَارِيَةً خَدِيَّةً مَكْرَمَةً مَحِبَّةً تَحْبُّ مِنْ أَحَبِّهِ"

الوسطاء وخطابهم وطقوس الاتصال بالملائكة

إن عالم الجاهلية كان عالماً عامراً بالقوى اللامرئية، لعل أهمها الأرواح والهوانف والملائكة والجن. ويبدو أن كل تلك القوى ترتد إلى الجن وتحدر منها بما في ذلك الملائكة. وقد اعتقد الجاهليون إمكانية الاتصال بين البشر وهذه القوى اللامرئية. وستنظر في ما يلي في نموذج الكاهن باعتباره وسيطاً بين الجماعة والألوهية.

الكاهن:

نظراً إلى غلبة نمط عيش التردد على العرب في الجاهلية، وإلى غياب المؤسسة الدينية فإنه لم يظهر بين الجاهليين تنظيم كهنوتي شأن العبرانيين³⁰. ومع ذلك فقد ظهر الكاهن وأطلقت هذه اللفظة على "الرجل المتكهن أي الذي يتتبأ بالغيب ويتحدث للناس بما قد يحدث لهم في المستقبل"³¹. ويدهب الباحثون إلى أن لفظ الكاهن هو اسم جنس ينضوي تحته الناهضون بشتى طرق الإخبار بالمغيبات كالعرفان والجازي والسادن والقائد والزاجر والمنجم والعائف والشاعر والحكم...³².

و عموماً يمكن أن نرد أدوار الكاهن إلى أدوار ثلاثة:

دور رجل الدين، وهو في ذلك يتماثل مع الكوهين العبري، ويظهر هذا الدور من خلال الأسماء البديلة التي للكاهن كالجازي، وذي الله، والرب، والسادن، وال حاجب. ويمكن أن نمثل له بشخصية الكاهن عزى سلمة، الذي يبدو أنه كان كاهناً على علاقة بالربة العزى³³، كما ورد في بيت لأحية بن الجراح قوله:

فهل من كاهن أو ذي الله إذا ما حان من رب أقول [الهزج]

وإضافة إلى خدمة السданة، كان الكاهن يسهر على خدمة رب القبيلة، ويحمله أثناء حل القبيلة وترحالها.

³⁰- حول الكاهن العبراني انظر: قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، ط 1، 1995، مصطلح "كاهن، كهنوت" ص ص 791-794

³¹- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 190

³²- انظر:

Fahd (t):

- la divination arabe, éd Sindbad, Paris 1987, p 106
- art «Kahin» dans EI2

ذلك: عادل خضر: الأدب عند العرب، مقاربة وسائلية، ص 235

³³- جاء في المنمق: "سلمة اسمه وعزى اسم شيطانه" ص 102

دور قائد القبيلة: فقد كان أغلب الكهان من ذوي الشرف والرياسة في قبائلهم: كان زهير بن جناب رئيس كلب، وكان عوف بن ربيعة بن سوادة سيدبني أسد، وكان جذيمة الأبرش ملّاً مطاعاً، وكان مصاد بن مذعور القيني رئيساً قد أخذ مرباع قومه دهراً، أما الكاهنة طريفة فكانت زوجة عمرو بن عامر مزيقياء أحد ملوك اليمن، وكانت سلمى الهمدانية بنت سيد همدان³⁴. وقد تولى الكاهن قيادة القبيلة في الحرب كما هو حال كاهن بني أسد. وتأتي بالسيادة مهمة الفصل في الجليل من الأمور كالحكم في الخصومات والقضاء في المنافرات³⁵.

دور المتتبّع: وهو الدور الذي يهمنا في هذا السياق. إنّ أهم وظيفة للكاهن هي وظيفة تعرف الحوادث والإخبار بالمغيبات والوقوف على الأمور المستقبلة عن طريق تقنيات اخطافية (Extatique) نبوئية (Oraculaire). ولعل النظر في مصادر علم الكاهن، وفي الأعراض البدنية عليه، وفي الخطاب الصادر عنه، وفي الوظائف التي ينهض بها خلال هذا الدور كفيل بتحقيق حظ الكاهن من الوحي.

- إنّ علم الكاهن رديف للوحي كيما قلبته، فهو يتلقى علمه عن طريق كائن لطيف خفي هو الرئي، ويسمى كذلك التابع والصاحب والمولى والولي، يلقي إليه المعرفة بكيفية خفية خاصة لا يتمكن الناس من سماعها ولا من ملاحظة اللقاء بين المبلغ والمبلغ.

أما كيفية العلم عند الكاهن فتكون بأشكال متعددة: عن طريق السماع: يأتي الرئي الكاهن فيلقي إليه علم الغيب، وهو سمع خاص لا يتمكن منه الآخرون³⁶، وعن طريق النفت في الروع، إذ يجد الكاهن المعرفة في نفسه فيتكلّم أو يتكلّم الآخر من خلاله³⁷، وعن طريق الرؤيا الصادقة يراها الكاهن أو ترى له وقد تكون رمزاً لا يفكه إلا الكاهن، فتحتاج إلى التأويل وقد لا تحتاج إلى تأويل بأن يرى الكاهن أثناء النوم حوادث المستقبل تجري

³⁴. انظر: المسعودي: مروج الذهب: ذكر الكهانة ص 166 وما بعدها، الأولوسي: بلوغ الأربع: علم الكهانة والعرفة ج 3 ص 270 وما بعدها، قصص العرب ج 1 الباب 2: في القصص التي تتضمن معتقداتهم وأخبار كهانهم ص 69 وما بعدها، الإبشبي: المستطرف من كل فن مستطرف. مطبعة حجازي القاهرة 1953 ج 2 الباب 60: في الكهانة والقياس ص 90 وما بعدها.

³⁵. من ذلك ما جاء في خبر حرف عبد المطلب زرم: "...فَلَمَّا بَدَا لِهِ الطَّوْيُ كَبَرَ فَعْرَفَتْ قَرِيشٌ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمَطْلَبِ إِنَّهَا بِئْرٌ أَبِينَا إِسْمَاعِيلٍ وَإِنَّ لَنَا فِيهَا حَقًا فَأَشْرَكَنَا مَعَكَ فِيهَا. قَالَ: مَا أَنَا فَاعِلٌ فَاجْعَلُوهَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ إِلَيْهِ. قَالُوا: كَاهِنَةُ بَنِي سَعْدٍ. قَالَ نَعَمْ. وَكَانَتْ بِالشَّامِ ...". المنق في أخبار قريش ص 109، كذلك ابن هشام، ج 1، ص 107)، كذلك احتمام عبد المطلب وجندب بن الحارث التقى إلى عزى سلمة الكاهن في أموال، وقضاء الكاهن الخزاعي في مناقبة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس واحتكام عاذن بن عبد الله المخزومي والحارث بن أسد بن عبد العزى إلى كاهن بسعفان، واحتكام بني أمية وبني مخزوم إلى سطيج الكاهن (انظر: المنق، ص ص 94-104)

³⁶. ومثالها: "...قال خنافر بن التوأم الحميري: كان رئي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عنِّي فلما شاع الإسلام فقدته مدة طويلة وساعني ذلك، فيبينما أنا ليلة في ذلك الوادي نائماً إذ هو يُحيي العقاب فقال: خنافر! فقلت: شscar! فقال: اسمع أفل، فقلت: شscar! فقال: عه تغم، لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت أجل قال: كل دولة إلى أجل، ثم بناح لها حول، انتسخت النحل، ورجعت إلى حقائقها الملل..... (الألوسي: بلوغ الأربع، ج 3، ص 291)

³⁷. ومثالها: "...ثم انطلقوا إلى الكاهن (عزى سلمة) وقد خبأوا له خبيباً وهو رأس جرادة فجعلوه في خربة مزادة وعلقه في قلادة كلب لهم يقال له سوار... فقال ما حاجتكم؟ قالوا: إننا قد خبأنا لك خبيباً فأخبرنا عنه قال: نعم خبائنا طار فسيط، فتصوب فوق، فالأرض منه يقع... هو رأس جرادة في خربة مزادة في عنق سوار ذي القلادة (ابن حبيب: المنق، ص ص 95-69)

في مخيلته³⁸، وعن طريق الرؤية وهي مشاهدات يراها الكاهن ويراها الناس، لكن الكاهن يتلقى من خلالها رسالة خاصة مشفرة يقف وحده على معناها الحقيقي³⁹.

إن الكاهن مالك للحقيقة، مطلع على أسرار الغيب، صادق في ما يقول. وقد عبرت الروايات التراثية عن أصلالة علم الكاهن بنجاح كل كاهن في اختبار معرفته عن طريق الخبر/الخبئية: يخبنون للكاهن شيئاً ويسألونه فيعلمهم بالشيء ومكان إخفائه، وبالنزول عند حكمه في النوازل والمنافرات التي تحدث بينهم، وبحدوث نبوءاته: تتنبأ الكاهنة طريقة بخراب سد مأرب فيكون ذلك، ويرى كاهنبني أسد فرسان العدو فتصدق الغارة، ويبشر شق وسطيغ بنبوة محمد فتحت.

- إن الأعراض البدائية على الكاهن وهو يتلقى علمه تؤكد أنه يعيش حال الانخطاف (extase) وهي الحال المرافقة لكل كلام نبوئي. فالكافن "يكون أثناء تكهنه في غيوبه أو في شبه غيوبه في الغالب، ذلك أنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجده صعب لا يتحمله كل إنسان. ولا تصال الروح به يتسبب العرق منه، خاصة إذا كان المتكلم الكاهن نفسه. ويكون التكهنه في الغالب في مكان هادئ تكتنفه ظلمة أو عتمة... ويسبقه حرق بخور في الأكثر"⁴⁰ وقد تم التعبير عن حال الانخطاف تلك من خلال بعض الأسماء البديلة للكاهن. فالكافن عمرو بن الجعيد سيد ربيعة كان يسمى الأفك، وتعني هذه العبارة الشخص الذي تعتبره الرعدة والنقطة، أما الكاهن زهير بن جناب سيد كلب فكان يسمى الحازمي، وتعني هذه العبارة الشخص الذي يمارس طرقاً تنبؤية وسحرية.⁴¹ أما الكاهن سطيح الغساني "كان أول ما تكهنه به أنه كان نائماً في ليلة صهاكية مظلمة مع إخوته في

³⁸- جرت العادة أن يرى الآخرون رؤى يقصونها على الكاهن فيعبرها لهم أو أن يرى الكاهن رؤى يعبرونها بأنفسهم، وقد جمعت قصة عفرياء الكاهنة مع مرثى بن عبد كلال بين هذين النوعين: "...فبینما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في النهار أحاقه وأذعرته، فلما انتبه أنسىها وثبت في نفسه ارتياهه منها... ثم إنه حشر الكهان يجعل يخلو بكافن بعد كاهن ثم يقول له: أخبرني عما أريد أن أسألك عنه فيجيئه الكاهن بأن لا علم عندي (...)" فقال: يا عفرياء، أتعلمين تلك المعجلة؟ قالت: أجل إنها رؤيا من لم يليست بأضيق أحلام. قال الملك: أصبت يا عفرياء فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيت أعاصر زوابع، بعضها البعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفونها نهر متدافع، وسمعت فيما أنت سامع، دعاء ذي جرس صادع: هلموا إلى المشارع، فروي جارع، وغرق كارع" فقال الملك: أجل هذه رؤيائي. فما تأولتها يا عفرياء؟ قالت: الأعاصر الزوابع ملوك تابع، والنهر علم واسع، والداعي نبي شافع، والجارع ولبي تابع، والكارع عدو منازع....." (قصص العرب، ج 1، ص ص 78-80، كذلك الألوسي: بلوغ الأربع، ج 3، ص ص 296-298).

³⁹- ومثالها ما رأته طريفة الكاهنة: "...فخرجت تمثي تريده ومعها وصائف لها في بينما هي تمثي إذ عرض لها ثلاثة مناجد وهن مننصبات على أرجلهن واضطاعت أيديهن على أيديهن فلما رأتين قالت لوصائفها: إذا ذهنت هولاء المناجد فأعلمتنني فلما ذهنت أخبرنها فقامت مسرعة فعارضها خليج جنات عمرو، فوثبت منه سلحفاة، فرقعت على التراب، واستلتقت على ظهرها، ورامت أن تنقلب فلم تستطع وهي تحشو التراب على رأسها... حتى دخلت الحديقة نصف النهار حين سكن الريح، فإذا شجر الحديقة متصلة يميناً وشمالاً من غير ريح..... قالت: هيئات هيئات يا عمر تفاصم الأمر ومنع السر. قال وما ذلك الله أباوك؟ فقالت: والنور والظلماء، والأرض والسماء، ليهلك الشجر بالماء، ثم الماء.....أخبرتني المناجد بسبعين شدائد يقطع فيها الولد الوالد..... إبني أقول تلهفاً لما رأيت السلحفاة علت خليجاً أنها تغترف التراب بيديها غرفاً...." (وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية. صنعاء ط 2، 1979، ص ص 276-277).

⁴⁰- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 316

⁴¹- voir: Fahd (T):

- art: Kahin, dans EI2

- La divination arabe. P 103

لحاد، والحي خلوف، إذ زرع من بينهم ورن وتأوه، والضياء والشفق، والظلم والغسق، ليطرقونكم ما طرق.
قالوا: ما طرق يا سطيح؟ قال: ما طرق إلا الأجلح، حين سرى الليل البهيم الأفح، وولاهم بسردح... فانصرفوا عن قوله، واستهانوا بأمره، وتعاصفت مدوة من أودية هناك فجاجاتهم في ليلة باردة قرة كما ذكر، فساقت الأنعام والمواشي، وكادت أن تذهب بعامتهم⁴². وقد كان الكهان يمارسون طقوساً خاصة تهيئ لتلقي الوحي منها الاستخارة بالنوم في الحجر والأماكن المقدسة عموماً، وارتداء زي خاص، والتذر⁴³.

إن جملة الطقوس المرافقة للتکهن، المهيئه له، والأعراض الباردية على الكاهن تؤكد حال الانخطاف التي يعيشها الكاهن أثناء تلقيه العلم المفارق حتى أنه يغدو غافلاً عن عالم الشهادة مستغرقاً بكليته في عالم الغيب، فضلاً عن أنه يفقد السيطرة على ذاته التي تغدو محلّاً للمفارق يسكنها وينكلم من خلالها. جاء في كتاب التیجان: "أن آتى أتها(طريفة) وقال لها: ما تحبين يا طريفة علم تطيب به نفسك أو مولود تقر به عينك؟ فقالت: بل علم تطيب به نفسى، فحر بيده على صدرها، ومسح بظاهر كفه على بطنه.. فاتسعت في العلم وأعطيت منه حظاً عظيماً"⁴⁴. وجاء فيه أيضاً: "قالت طريفة: يابني عمرو بن عامر أوصيكم فقد حان موتي.. ثم قالت: انزلوا وأقيموا فإني ميتة هذه الليلة، وقد رأيت أن علمي يخلفني فيه مولودان في هذه الليلة فجعلهما الله آية للأولين والآخرين.... لقد ولد في تميم آخر منبني العم ليس له مفصل ولا عظم يخرج ممسوحاً ثم تموت أمه لسبع ليالٍ ينبئ بالزيادة والنقصان، إلى فراغ الخلق والزمان، وأقسم بالنور والفق، ماله رأس ولا عنق، فكان يكبر كما يكبر كل شيء، وماتت أمه لسبعة أيام من مولده فأتوا به إلى طريفة ففتحت فمه فنفت فيه وقالت: أقسم بالله يمين الحق، ليأتين مثل هذا شق، يعلم ما جل وما دق، له يد واحدة ورجل واحدة وآية الله عليه شاهدة يعلم ما خفي وما ظهر، ينبي بالحق عند تصديق الخبر، فأتواها به ففقلت في فمه وقالت له: أنت خليقتي من بعدي".

إن النفت في الفم أو التقل فيه طريقة لتلقي المعرفة وتناقلها، وهو دال كذلك على قداسة الفم النبوئي الناطق بالعلم والحكمة، وهي قداسة يمكن أن تنتقل من المعلم إلى المتعلم بطريقة سحرية. وتتبئ هذه الطريقة بأن جسد الكاهن يصير وقد حل فيه الكائن المفارق - (الرئي) - جسداً مفارقًا قادرًا على الفعل في العالم وفي الأشياء ولعله من ثمة نسبت إلى الكهان القدرة على شفاء المرضى، وكانوا ينهاضون في قبائلهم بوظيفة

⁴²- المسعودي: مروج الذهب، ج، ص ص 206-207.

⁴³- "و كان الكاهن لا يلبس المصينع، والعرفاف لا يدع تنبييل قميصه وسحب رداءه "الجاحظ: البيان والتبيين دار الكتب العلمية بيروت. د.ت، ج 3، ص 51 كذلك: قصص العرب، ج 2 ص 91، المنافق في أخبار قريش، ص 23 – ويتماثل الكاهن عند العرب في ذلك مع الكاهن عند الإغريق. راجع:

Raymond Bloch: La divination dans l'antiquité, chap I: Le Monde grec et la divination. P 19

⁴⁴- ابن منبه (وهب): كتاب التیجان، ص ص 275-276

⁴⁵- نفسه، ص 291

الطيب⁴⁶. ونلاحظ أن تقنية التفل تتقاطع مع ما ينسب إلى الساحر من نفح ونفت⁴⁷ كما تتقاطع مع الأخبار المأثورة عن بركة بصاق النبي.⁴⁸

إن أهم وظيفة تجعل للكاهن شبهة الوحي هي وظيفة الوسيط بين الجماعة والألوهه: فهو يقدم الأضاحي والقرابين ويقوم بالسدانة، ويحكم بين الناس باعتباره كذلك. ولعل ما يجعل قدمه راسخة في القيام بهذه الوظيفة هي قدرته على الوساطة بين عالم الغيب وعالم الشهادة. فهو يطلع على المستقبل ويترجم إرادة الله، ويخبر بالمغيبات ويعلم ما خفي من حقائق. ويؤول ما ظهر منها تأويلاً صحيحاً... هو ببساطة مالك أصيل للحقيقة حتى أننا لا نعثر البنة في مجمل الروايات التراثية على نبوءة كاهن زافت، ولا على حكم نبا عن الحق. ومن ثمة لا يمكن أن نرد علم الكاهن إلى مصدر مبتنى وإن كان مفارقاً - كالجن بالمعنى الإسلامي والشياطين الذين يوحون زخرف القول غروراً- وإنما الصواب أن نرده إلى جهة علم نافذة هي الله أو أعوانه الناقلون للحقيقة في تصوّر الجاهليين.

- إن تجربة تلقي العلم عند الكاهن تظل تجربة ذاتية، لا تشاهد منها الجماعة سوى الأعراض البدائية عليه من تعرق وغيبة، ولا تسمع سوى الخطاب الصادر عن الكاهن، وقد أضحت وسيطاً بين الرئيسي والجماعة. إنه يحول النبوءة الحاصلة في القلب أو المهموسة في الأنف إلى خطاب يصاغ سجعاً عادة. ويبدو أن الكاهن قد اختصوا بهذا الضرب من الخطاب حتى أصبح علامه عليهم وصار أسلوباً ينسب إليهم فقيل "سجع الكاهن"، فالكافر إذا حكم أو خطب أو طلب منه تأويل رؤيا أو تكلم من تلقاء نفسه فإنه لا يتكلم إلا سجعاً. والراجح أن السجع ليس مجرد أسلوب اختياره الكاهن، وإنما هو علامه على انحراف الكاهن في حال تلقي

⁴⁶- كان زهير بن جناب الكلبي سيد كلب وفارسهم وخطيبهم وطبيبهم، انظر: Fahd (t): La divination arabe p 102 و يؤثر عن قائلهم قوله: جعلت لعرف اليمامة حكمة و عراف نجد إن هما شفاني

ويبدو أن الكاهن تسمى طيباً لمداواته العلل الطبيعية، وعرفاً لمداواته الأدواء الناجمة عن كائنات مفارقة كالجنة (معنى الخيل). فقد جاء في مروج الذهب أن دماء جنيبة تشفي من الخيل (ج2 ص 102). ونلاحظ أن الجاهليين تصوروا الدم بمثابة الروح، (مروج الذهب 2 ص 165)، فالروح التي تحل في الكاهن هي التي تشفى الأسمام. وتتمثل هذه الوظيفة التي للكاهن عند العرب مع وظيفته عند الإغريق. راجع:

Raymond (bloch): la divination dans l'antiquité. P 20

ولا شك أن نهوض الكاهن بوظيفة المداواة تعرّب عن نسبة قدرات الكاهن إلى علوي خير، وهو في ذلك يتميز عن الساحر الذي يدين بقدرته إلى علوي شرير.

⁴⁷- إضافة إلى ما جاء في القرآن في وصف السواحرون آنهم "نفاتن في العقد" (الفلق 4/113)، جاء في قصص العرب أن النجاشي لما علم بدخول عمارة بن الوليد المخزومي على نسائه "دعا بعمارة ودعا بالسواحر فجرده من ثيابه فنفخن فيه، ثم خلى سبيله فخرج هارباً يرد مع الوحش وكان شعره قد غطى كل شيء منه" (قصص العرب، ج 1، ص 92-94) ولعل الفرق بين الكاهن والساخر كامن في اختصاص الساحر بالشر.

⁴⁸- راجع: البخاري: الصحيح، باب علامات النبوة في الإسلام. دار إحياء التراث العربي. د.ت.ج 4 ص 234 كذلك ابن سعد: السيرة النبوية من الطبقات الكبرى. مج 1، ص 179

النبوة⁴⁹. ويبدو أن بعض الكهان ما إن يتوتا العلم حتى ينقلب كلامهم سجعاً⁵⁰، ويمتاز سجع الكهان بتراكيبه القصيرة ومفرداته الملغزة وإيقاعه الثري، حتى أنه ليشكل العبارة السحرية. ولنا في نبوءة زبراء الكاهنة وهي تنذر قومها بنى رئام بالغزو نموذج لعبارة الكاهن: "قالوا ما تقولين يا زبراء؟ فقالت: والليل الغاسق، واللوح الخافق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو ختلاً، ويحرق أنياباً عصلاً وأن صخر الطود لينذر شكلًا، لا تجدون عنه معلًا...".⁵¹

إن خطاب الكاهن يكشف عن ثلاثة ملامح: أولها استقلال معرفة الكاهن وفرادة نصه حتى صار له شكل خاص من الكلام يعرف به، وثانيها التأكيد على قدرة الكاهن على تصريف الكلام و اختيار العبارة وإتقان الأسلوب، وهي قدرة قد يكون اكتسبها من جهة العلم التي يمثلها، وثالثها نزوع خطاب الكاهن إلى التأثير في السامع بضرور الإيقاع والإغراب.

الطقوس التعبدية

سندرس في هذا السياق الطقوس التي كان يؤديها العرب المشركون غير النصارى ولا اليهود، لأن طقوس هؤلاء معروفة وكتبهم محفوظة. ونعني بالطقوس الشعائر الدينية السلوكية التي كان هؤلاء يأتونها ومن أهمّها:

الحجّ: كان البيت الذي بمكة "الكعبة" محجة للعرب قاطبة يأتون إليه من كل فج عميق رجالاً وركباناً، حتى أنهم سمّوه "كعبة العرب": محجة قومية، وميّزوه بالتقديس كما ميّزوه بالشكل (المربع أو المكعب) وبالكسوة، وقد ذكره الشعراء الجاهليون كثيراً مترننا بالحجّ، قال زهير:

"فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجراهم"

⁴⁹- تقطن ابن خلدون إلى أن السجع ليس أسلوباً مستقلاً اختاره الكاهن وإنما للسجع علاقة بالعلم الذي تلقاه الكاهن: "وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص" (ابن خلدون، المقدمة، ط دار الجيل، بيروت، ص 111)

⁵⁰- ذكر المسعودي عن سطبيج "كان أول ما تكهن به أنه كان نائماً في ليلة صهاكية مظلمة مع إخوته في لحاف والحي خلوف، إذ زعم من بينهم ورن وتأنوه، والضباء والشقق، والظلام والغسق، ليطرقكم ما طرق..." (مروج الذهب، ج 2، ص 206)

⁵¹- الألوسي: بلوغ الأربع، ج 3، ص 288 - 289 وفي الباب الذي عقده للكهانة، ج 3، ص 269-306، أمثلة كثيرة لسجع الكهان ولئن شك بعض الباحثين في أصلية تلك النصوص (جود علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 190) فإنها تقوم على الرغم من ذلك شاهداً على نوع الكلام الذي للكهان، انظر:

Fahd (T):

- Art: SAdJc dans EI2
- La divination arabe. P 165

وقد بلغ الحجّ قبيل الإسلام حدًّا من الانتظام كبيرًا تجلّى في:

- حرمة زمانه: فقد توأطاً العرب على تخصيص ثلاثة أشهر حرم لموسم الحجّ هي: ذو القعدة، ذو الحجة ومحرّم، وهي أشهر آمنة يحرّم فيها سفك الدّماء وقطع الطريق، ونلاحظ أن ذلك كان للحجّ والتجارة في آن: أسواق المجنّة، عكاظ ذو المجاز. يضاف إلى ذلك شهر رجب المخصص للعمرة. وفيها يتم طقس الهدى: نحر الفتى من الحيوان ابتغاء الزيادة في الرزق.

- قيام مؤسساته: وتنتشر في تنظيم موسم الحجّ، وفي توفير جهاز يسهر على تصريف شعائره: كمؤسسة السقاية، ومؤسسة الرفادة، ومؤسسة الإجازة: صوفة كانت تدفع الناس من عرفة، وتجيز لهم إذا نفروا من منى، وتستهلّ رمي الحجرات. ولا شك أنّ قريشاً قد سادت بالحجّ حتّى قسمت القبائل وفق درجات ولائها إلى حلّة وحمس.

- استواء أركانه، وهي: الإحرام في يوم التروية فالوقوف على عرفات فالإفاضة إلى مزدلفة فالنحر فالحلق فالطّواف واستلام الحجر الأسود فرمي الجمرات.⁵²

الطهارة: رأينا سابقاً أن الرجال والنساء يعتزلون بعضهم بعضاً عند المقام في حرم الصّنم، وكذلك هم عند الحجّ. ويذكر المؤرخون طهارة أخرى لهم. قال الشّهيرستاني: "كانوا يداومون على طهارات الفطرة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ فأما اللّواتي في الرأس فالمضمضة، والاستنشاق، وقص الشّارب، والفرق، والسواك، وأما اللّواتي في الجسد: فالاستجاجة، وتقطيم الأظافر، وتنف الإبط، وحلق العانة، والختان".⁵³

وكانوا يغسلون موتاهم، ويكتفون بهم ويؤتونهم في شبه صلاة تختتم بالقول: عليك رحمة الله وبركاته⁵⁴. وكانوا يقيمون بعض الصلوات كصلاة الاستسقاء⁵⁵، وتقوم على الاعتسال فالتطيب فاستلام الحجر الأسود، ثم الارتقاء إلى جبل أبي قبيس أو ثيير فيقدمون رجلاً يتضرّع إلى الله ويؤمن القوم على ما يقول (اللهم ساد الخلة/آمين، وكاشف الكربة/آمين...).

⁵²- ابن هشام: السيرة النبوية، ج 1، ص ص 88-96. كذلك ابن حبيب: المنمق، ص ص 127-129

⁵³- الشهيرستاني: الملل والنحل، ج 2، ص ص 229-230

⁵⁴- نفسه، ص 229. كذلك الألوسي: بلوغ الأربع، ج 2، ص 287

⁵⁵- ابن حبيب: المنمق، ص ص 145-147

وكانوا يخطبون من يوم الجمعة في أمور دينهم ودنياهم⁵⁶، ويصومون يوم عاشوراء: العاشر من محرم⁵⁷، وربما صاموا بعض أيام الحجّ. وقد ينقطع بعضهم للاعتكاف والتعبد في حراء أيامًا تطول وتقصر، يساعدهم على ذلك ما وفرته لهم التجارة من حياة الأمن والدعة⁵⁸، يسمون ذلك النجوى أو المناجاة. قال بشير بن الحمير الإيادي:

ونحن إِياد عَبْدِ الإِلَهِ وَرَهْطٌ مُنَاجِيهُ فِي السَّلْمِ

يعني بذلك وكيع بن سلمة الإيادي. وهم في جل طقوسهم هذه يجعلون الكعبة قبلتهم، ويؤدون اليمين بين الركن والمقام ويسمون ذلك القساممة، يتهيّبون منها تهبيًّا شديداً، ويررون القصص في من حاف كاذباً فأهلكه الله. والقساممة غير الاستقسام الذي هو طقس كذلك كنا قد أشرنا إليه سابقاً.

ويدل مذهبهم في البحيرة والوصيلة والسانية والحمى⁵⁹ أنهم كانوا يؤدون الزكاة على أموالهم إذا بلغت نصاباً معلوماً: "الوصيلة هي الشّاة إذا وضعت سبعة أبطن عمدوا إلى السابع، فإن كان ذكرًا ذبح"⁶⁰.

كما كانت لديهم مذاهب في انتقاء الأذى كالتنفير والتجيس والتعشير والرقية والحميلة والتعوذ والزجر والطّيرة⁶¹ وهي إلى العادات أقرب منها إلى الطّقوس.

الجماعات الدينية

أهم الجماعات الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام: عبادة الأصنام - وقد تعرّضنا لهم - واليهود والنصارى والحنفاء.

⁵⁶- ابن هشام: السيرة النبوية، ج 3، ص 63

⁵⁷- الألوسي: بلوغ الأربع، ج 2، ص 288

⁵⁸- ابن حبيب: المنق "فخر (أبو الفارظ) إلى حراء قتعد تلك الثلاث في رأسه ثم نزل"، ص 239

⁵⁹- البحيرة: الناقة تشق أنها وتنذر للآلهة، السانية: الناقة إذا تابعت بين عشر إناث سبیت لا يشرب لبنها إلا ضيف وكذلك نتاجها، الحامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث حمي ظهره. ونلاحظ أن المصادر تختلف في تعريف هذه الألقاط لكنها تتفق في اعتبار هذه الحيوانات منذورة للآلهة.

⁶⁰- ابن حبيب: المنق، ص 329

⁶¹- التنفير: التسمية بأسماء موحشة لتنفير الأرواح الشريرة، التجيس: وضع النجاسة لصرف الجن إليها، التعشير: النهيق لتجنب الداء، الرقية: تلاوة كلام غامض للشفاء من مرض أو عين، الحميّة: الخزر الذي يحمل على الصدر لانتقاء الشرور، التعوذ: القول "أعوذ بـ... من...، الزجر: إثارة الطير من مكانها فإذا تيامن عند طيرانه سمى: السانح ودل على الفائل الحسن وإذا تياسر (تشاعم) سمى البارح ودل على الشؤم، الطيرة: الشاؤم بالأصوات والأسماء والحيوانات والأشياء وعكسها الفائل.

أ- اليهود:

اختلف العلماء في يهود شبه جزيرة العرب: هل هم عرب متهدّدون أم هم يهود مهاجرون. وقد ذكر اليعقوبي أنّ ممّن تهّود من العرب "اليمن بأسرها... وتهّود قوم من الأوس والخزر بعد خروجهم من اليمن لمحاورتهم يهود خير وقريظة والنضير، وتهّود قوم من بنى الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام"⁶². وسواء كان هؤلاء عرباً متهدّدين أو يهوداً مهاجرين فالثابت أنّهم قد اختلطوا بالعرب وتكلّموا بلسانهم واشتركوا معهم في التجارة والزراعة وصاہروهم⁶³. فيثرب مثلاً كانت مدينة يتقاسمها الأوس والخزر واليهود، أمّا اليمن فكانت أهمّ مراكزهم، وتمكنوا من السيادة عليها في القرن 6 م. وقد عثر على نصّ مكتوب بالمسند الحميري جاء فيه "تبارك اسم الرّحمن الذي في السماء وإسرائيل وإلهه ربّ يهود الذي ساعد عبده".⁶⁴ ويذكر الرواية أنّ ملك اليمن تبع الأصغر قد تهّود وتهّود معه أهل اليمن، وكذلك كان ذو نواس. وقد أقام غالب هؤلاء اليهود في الأماكن الخصبة، وبنوا الآطام، واشتغلوا بالزراعة والتجارة والحرف (\neq البداوة) وكانوا قبائل: بنو قينقاع، بنو زعوراء، بنو بهدل...⁶⁵، وتذكر المصادر أنّ كتابهم الدينيّة كانت متداولة، وسلطة أحبارهم كانت راسخة، وأعيادهم كانت معروفة.

وحّى إن افترضنا أنّهم لم يكونوا عرباً، فإنّ الاختلاط بهم تجارةً ومصاہرةً وشعرًا جعل عرب شبه الجزيرة قبل الإسلام يتعرّفون على الديانة اليهوديّة وقيمها وعقائدها وأعيادها، فالسؤال مثلاً شاعر ذائع الصّيت ضرب العرب به المثل في الوفاء تعنّي في شعره بالبعث والقضاء:

ميت دهر قد كنت ثم حييت	وحياتي رهن بأن سأموت
وأتاني اليقين أنّي إذا ماتت	وإن رمّ أعظمي مبعوث
بل لكل من رزقه ما قضى الله	ه وإن حزّ أنفه المستميث

وقال عدي بن زيد العيادي:

قضى لستة أيام خلائقه	وكان آخرها أن صور الرجال
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له	بنفحة الروح في الجسم الذي جبل

⁶²- اليعقوبي: تاريخ، ج 1، ص 226. كذلك جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 514

⁶³- ابن حبيب: المنمق، ص 402

⁶⁴- جواد علي: المفصل، ج 5، ص 541

⁶⁵- إسرائيل ولفسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد. مصر 1927

بـ- النّصارى:

لم تتعغل ديانة بين العرب قبل الإسلام تغلغل النصرانية، فقد كانت منتشرة شماليًّا ببادية الشام (غسان)، وشرقاً في عمان واليمامه والبحرين (عبد القيس وبنو حنيفة) وبين العراق والشام (الجزيره: بنو تغلب وبنو بكر وبنو شيبان) وفي اليمن (نجران) وفي نجد (طيء وكندة) وفي الحجاز وتميم (أيله ودومة الجندي ووادي القرى ويثيرب ومكّة). قال ياقوت الحموي "كان أهل ثلات بيوتات يتبارون في البيع أهل المنذر بالحيرة، وغسان بالشام، وأبو الحارث بن كعب بن نجران".⁶⁶ وقال اليعقوبي قي تاريخه: "وأمّا من تتصر من أحياء العرب فقوم من قريش، ومن بني تميم: بنو امرئ القيس بن زيد بن منا، ومن ربيعة: بنو تغلب، ومن اليمن: طيء ومذحج وبهاء وسلیح وتتوخ وغسان ولخم".⁶⁷ ومن أهمّ أسباب انتشار النصرانية وقوع بلاد العرب على أطراف إمبراطوريّات تدين بالمسيحية (بيزنطة) وحملات التنصير (حملة أبراهة على اليمن) وجهود التبشير (متى وتوما وبرتلاموس وأحودمة ~ 559م) والتجارة والرّقّ وحاجة العرب إلى حرفيّي النّصارى.⁶⁸

ولعلّ بقاء قبائل عربية على نصرانيتها بعد الإسلام، وتفضيلها الجزية على دخول الإسلام، شأن تغلب مثلاً، أبرز دليل على التغلغل الذي أشرنا إليه.

إنّ شعراء من مثل عمرو بن كلثوم وظرفة بن العبد، والمرقشان، والحارث بن حلزة، والمنخل اليشكري، والأعشى، وأوس بن حجر، وعلقمة الفحل، وعدى بن زيد العبادي، وعنترة، وعروة بن الورد، والنابغة الذبياني، ودرید بن الصمة، وامرئ القيس، وحاتم الطائي، وزهير بن أبي سلمى... كانوا نصارى.⁶⁹

وإنّ الأفاظاً من مثل: المنبر، المصحف، الشّيطان، الإنجيل، جهنّم، القلم، الحرم، التابوت، النذر، العيد، المحراب، الصومعة، الصوم، الصرح، الملائكة... هي ألفاظ نصرانية في منابتها.⁷⁰

وقد انتشرت الكنائس والبيع والأديرة والصوماع في شبه جزيرة العرب انتشاراً واسعاً، ففي اليمن كانت كنيستان كبيرتان: واحدة بنجران والأخرى بصنعاء "القليس".⁷¹

⁶⁶- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 703

⁶⁷- اليعقوبي: تاريخ، ج1، ص 227

⁶⁸- سلوى بال حاج صالح العايب: المسيحية العربية، ص 37

⁶⁹- لويس شيخو: شعراء النصرانية.

⁷⁰- لويس شيخو: النصرانية وأدابها بين عرب الجاهلية، ص ص 157-220

⁷¹- الكلبي: الأصنام، ص 39

أما الأديرة فمن أشهرها دير هند ودير عمرو ودير حنا ودير بكر، وقد ذكر الشّعراء كثيراً رهبان هذه الأديرة ومصابيحهم وقراءاتهم وصلاتهم ونواقيسهم وصومهم وخرمهم وملابسهم... حتى أنّ تشبيه بياض المرأة أو البرق بأنوار الدّير قد أضحت سنة متّبعة في الشّعر الجاهلي.

وكانت أعيادهم معروفة مشتهرة بين النّاس، ومنها السّبّار (عيد البشاره) والقلنس (تمام الأسبوع لولادة المسيح- رأس السنة) والذّبح (ظهور الملائكة: 30 سنة) والشّعانيين (دخول المسيح أورشليم) والفصح (بعد الصوم الأربعيني) وكانت مراتب رجال دينهم محفوظة: الأسقف والحرّ والقسّ والشّماس والرّاهب.. وقد انتشر بين العرب قبل الإسلام مذهب الزّهد النّصراني، ومن ثمة حثّوا على الكرم وذمّوا حبّ المال، كما حثّوا على العفة وذمّوا السّينات. وقد اختصّ النّصارى من العرب بأسماء تبين عن عقيدتهم كعبد المسيح وعبد الرحمن وعبد الأعلى وأيوب وإبراهيم... وقد وردت في شعر العرب قبل الإسلام إشارات صريحة إلى رسوخ النّصرانية بينهم كقول عدي بن زيد العبادي:

وأوتينا الملك والإنجيل نقرؤه نشفى بحكمته أحلامنا علا

وقال آخر:

أقول إذا صلّيت في كلّ بيعة تبارك قد أكثرت باسمك داعيا

وقال الأعشى:

فإنّي وربّ السّاجدين عشيّة وما حك ناقوس الصّلاة أبيلها

ويلاحظ بعض الباحثين أنّ العرب النّصارى كانوا يصلّون إلى بيت المقدس قبلتهم الدينية، ويحجّون إلى مكّة (قبلتهم القومية)⁷²، بل إنّ عدي بن زيد العبادي لا يجد حرجاً في القسم بمكّة والصلّيب معًا:

سعى الأعداء لا يألون شرّا عليك وربّ مكّة والصلّيب

ولقد كانت صلات العرب النّصارى بالعرب المشركيين أمنٌ من صلاتهم باليهود لأسباب دينيّة وسياسيّة، وربّما عرقية، وكانوا يتميّزون في المحافل بحمل الصّلّيب.

⁷²- سلوى بال حاج صالح العايب: المسيحية العربية، ص 93. وينظر الأزرقي أنّ الكعبة كانت مزداناً بصور الأنبياء والملائكة وصورة المسيح والعذراء - أخبار مكة، ص 111

جـ- الحنفاء:

اختلف الدّارسون في معنى هذه الكلمة واشتقاقها: التحّنف والتحّنث، فمنهم من ردها إلى الخروج عن الحنث أي الإثم السالف وتطهير النفس منه، ومنهم من ردها إلى العبرانية Tehinnoth وتعني الاعتكاف والصلّة إلى الله، ومنهم من ردها إلى الأراميّة Hanêph وتعني الصائبة، كما اختلف الباحثون في مدى اعتبارهم جماعة دينية بدليل تصرّ بعضهم، وإسلام بعضهم لاحقاً... ومردّ تجربة الحنفاء إلى الخبر التالي: "قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعرفون عنده، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنة يوماً، فتخلّص منهم أربع نفر نجياً، ثمّ قالوا بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض. تعلموا والله ما قومكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حرج نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع. يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً".⁷³

وتذكر المصادر رجالاً في القبائل اشتهروا بعيوب الأصنام، ونحن نعتبرهم جماعة لما رأينا من وجوه الاختلاف بينهم، وهي:

- اطّلاعهم على الديانتين اليهوديّة والنصرانيّة اطّلاعاً عميقاً لإجادتهم لغات أخرى غير العربيّة كالعبرانيّة والسرّيانية⁷⁴، ورحلاتهم الكثيرة في البلاد بحثاً عن أجوبة دينية مقنعة لم يلقوها في غالب الأحيان.

- مفارقتهم عبادة الأصنام وذبائحها، وأكل الميّة، وميلهم إلى الاعتكاف والصوم والتأمل في خلوات تطول وتقصر، وقد كان حراء من بين أماكنهم المفضلة.

- التزامهم بمذهب أخلاقي رفيع، كامتناعهم عن شرب الخمر وعن الربا، بل بلغ الأمر ببعضهم إلى حدّ جلد ابنه في الخمرة.⁷⁵. يقول أميّة بن أبي الصلت الثقفي:

لا تخلطن خبيثات بطيبة واخلع ثيابك منها وانج عريانا

- اتيانهم بالحكمة والكلام البليغ، كقول وكيع بن سلمة الإيادي: اسمعوا وصيّتي: الكلام كلمتان والأمر بعد البيان. من رشد فاتبعوه ومن غوى فارفضوه. وكلّ شاة برجلها معلقة.⁷⁶

⁷³- ابن هشام: السيرة النبوية، ج 1، ص 160

⁷⁴- يعد ورقة بن نوفل المثال الساطع على التبحر في العلم

⁷⁵- ابن حبيب: المنمق، ص ص 152-154 وص 261

⁷⁶- الألوسي: بلوغ الأربع، ج 2، ص 261

المصير

أحسّ العرب قبل الإسلام - شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب - إحساساً فاجعاً بعثيّة الحياة وحتميّة الموت، بل وقفوا بعين المحقق على الموت يشقى به كل حيٍّ، وعبروا عن ذلك في أشعارهم وخطبهم وأمثالهم، فقالوا "الموت كأس وكل الناس ذائقه"، وقال زهير بن أبي سلمى:

"ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم"

وقال قس بن ساعدة الإيادي: "أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنّه من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت... مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناما..."⁷⁷.

وقد انقسم العرب فريقين في الإجابة على سؤال الموت:

- فريق أنكر البعث، وقد أخبر القرآن عن هؤلاء في آيات كثيرة: "إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةٌ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" (المؤمنون 23/37) و"وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هُنَّ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (هود 11/7) كذلك الجاثية 45/24 و الأنعام 29/6 والإسراء 17 / 49 و 98 والحج 5/22 والصفات 37 / 16.

كما أخبرت بذلك أشعارهم كقول عبد الله بن الزبوري: حياة ثم موت ثم نشر حربة يا أمّ عمرو وعلى الرغم من ذلك فإنّ هذا الاعتقاد لم يمنع هؤلاء من نحت غائيّة للفعل الإنساني يجاهد المرء من أجلها وإن انتهى إلى العدم هي: حسن الذكر.

- فريق أقرّ بالبعث، بل فصل تصوّره للبعث. وقبل أن نورد ذلك التصوّر نرى حرّياً أن نذكر بعض قرائن إيمانهم بالبعث، وأولّها البليّة، وهي الناقة التي تربط إلى قبر صاحبها عند موته، وثانيها غسل الميت وتكييفه والصلاحة عليه، وثالثها ما جاء في أدعيةهم: جزى الله ≠ لحا الله، رابعها اعتقادهم بشفاعة الأصنام واللات والعزّى. ومناء الثالثة الأخرى. تلك الغرائب العلى. وإن شفاعتهم لترجى". وخامساً اعتقادهم بالهامة، وهي روح الميت، وأنّها لا تفنى ولا تبلى: هامي تخبرني بما تستشعرون فلا تصنعوا الشّناعات والمكروها. وسادسها إقرارهم بأنّ الله خالق الكون "ولئن سألتهم من خلق السّماوات والأرض وسخر الشّمس

⁷⁷ - الألوسي: بلوغ الأربع، ج 2، ص 245

والقمر ليقولنَ الله" (العنكبوت 61/29)، وبديهي أن خلق الخلق لا يمكن أن يكون بلا غاية. ولذلك قال عامر بن الظرب العدواني يخطب فيهم "إِنْ أَرَى أُمُورًا شَتَّى وَهُنَّى. قيل: وما هُنَّى؟ قال: حتى يرجع الميت حيًّا ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلق السماوات والأرض".⁷⁸

لقد أبدع شاعر جاهلي هو أمية بن أبي الصلت الثقفي شعراً صوّر فيه الحشر والحساب والجنة وثوابها وجهنّم وعذابها،⁷⁹ فقال:

وَيَوْمَ مَوْعِدُهُمْ أَنْ يُحْشَرُوا زُمَرًا
وَأَبْرَزُوا بِصَعِيدٍ مُسْتَوٍ جُرْزٌ
فَمِنْهُمْ فَرَحٌ رَاضٌ بِمَعْثَهِ

وقال:

إِلَهُ الْعَالَمِينَ وَكُلَّ أَرْضٍ
بَنَاهَا وَابْتَنَى سَبْعَ شَادَادًا
... وَسِيقَ الْمُجْرَمُونَ وَهُمْ عَرَاءٌ
وَحَلَّ الْمُتَّقُونَ بَدَارٌ صَدَقٌ

وقال:

جَهَنَّمْ تَلَكَ لَا تَبْقَى بِغَيَا
فَذَا عَسْلٌ وَذَا لَبَنٌ وَخَمْرٌ
وَحُورٌ لَا يَرِينَ الشَّمْسَ فِيهَا
فَلَا تَدْنُو جَهَنَّمْ مِنْ بَرِيءٍ

وقال زهير بن سلمي:

فَلَا تَكْتَمِنَ اللَّهُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ
يَؤْخِرُ فِيَوْضُعَ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ

⁷⁸- الشهريستاني: الملل والنحل، ج 2 ص 242

⁷⁹- أمية بن أبي الصلت الثقفي: الديوان

قد يكون هذا التصور واقعاً تحت تأثير النصرانية واليهودية بالنسبة إلى زهير، لكن الثابت أن أميّة لم يكن نصراً ولا يهودياً. وقد لخص جواد علي في ديوان أميّة فقال: "يتخلّص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وأراء في الاعتقاد بوجود الله واحد خلق الكون وسواه وعدله، وهو الذي يحيي ويميت ثم يبعث الناس ويحاسبهم: فريق في الجنة وفريق في النار. يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع مكبّلين بالسلسل الطويلة والأغلال، أمّا المنقون فإنّهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال. فيها عسل ولبن وخمّر وقمح ورطب وتفاح ورمّان وتين وماء بارد عذب سليم وحور لا يرين الشمس فيها نواعم في الأرائك قاصرات، على سرر ترى مقابلات، حلّين بأساور من لجين وذهب وعسجد كريم، لا لغو فيه ولا تأثيم، ولا غول ولا فيه مليم وكأس يلذّ بحسن ربيها النديم... وفي هذا الشعر قصص الرّسل والأنبياء: آدم ونوح وقصة طوفانه وقصة ذي القرنين وبليقис وحكاية الهدّه وقصة إبراهيم وتقديم ابنه للذبح وداود وفرعون وموسى".⁸⁰

خاتمة:

الحياة الدينية العربية قبل الإسلام غنية في ظواهرها تناقض مع شتى الديانات في طقوسها وعقائدها وصلاتها بنواحي الحياة الأخرى الاقتصادية والاجتماعية. وعلى الرغم من بروز عوامل توحيد ديني كالحجّ إلى الكعبة، أو كاجتماع قبائل مختلفة على معبد واحد، وعلى الرغم من ظهور سلط دينية كالسادات والكاهن والرّاهب فإنّ العرب لم يتّحدوا إلا بالإسلام توحّداً سياسياً ودينياً في آنٍ.

وإنّ وسم حياة العرب الدينية قبل الإسلام بالكفر المفضي، والنظر إليها نظرة ازدراء له هو حُكم لا يمت إلى العلم بصلة. ولئن فطن الأقدمون إلى ثراء تلك الحياة فصنّفوا فيها دونما حرج شأن الكلبي وابن حبيب، فإنّ الباحث المعاصر يحتاج إلى تحيص أخبار القدامى وعرضها على الممكن العقلي والتاريخي ليرجح دونما قطعٍ.

⁸⁰- جواد علي: المفصل، ج5، ص ص 382-384

قائمة المصادر والمراجع

أ- في اللسان العربي

- الأزرقي (أبو الوليد محمد، ت 250): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس بيروت. ط2، د.ت.
- الألوسي (محمد شكري): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المكتبة الأهلية القاهرة، 1928
- جاد المولى (محمد أحمد) والبجاوي (علي محمد) وإبراهيم (محمد أبو الفضل): قصص العرب، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1962
- سحاب (فكتور): إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافي العربي. بيروت. ط1، 1992
- الشهريستاني (أبو الفتح محمد): المل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي. المكتبة العصرية بيروت، ط1، 2007
- شيخو (لويس): النصرانية وآدابها بينة عرب الجاهلية، دار المشرق، بيروت، ط2، 1989
- علي (جود): تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1955
- المسعودي (أبو الحسن علي، ت 346): مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الكتب العلمية بيروت د.ت
- ابن هشام (عبد الملك، ت 218): السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001

ب- في اللسان الأعجمي

- Andrae(tor). Les origines de l'Islam et le christianisme. Adrien Maisonneuve. Paris 1955
- Caillois(R). L'homme et le sacré. Leroux. Paris 1939
- Chelhod(J). Structures du sacré chez les arabes. Maisonneuve et Larose 1964
- Eliade(M). Traité d'histoire des religions. Payot. Paris 1949
- Fahd(Toufic). La divination arabe. Sindbad. Paris 1987
- Gaudefroy-Demombynes(M). Le pélérinage à la mekke. Paris 1923